الدراسات الاسلامية والشرق أوسطية في اليابان

استخدام ببليوغرافيا الدراسات الاسلامية والشرق أوسطية في اليابان، ١٨٦٨ ـ ١٩٨٨ لتحديد اتجاهات البحث[1]

بقلم تورو ميؤرا

جامعة اوجانوميزو ودار الكتب الشرقية، طوكيو ـ اليابان

تسود، في العالم وفي اليابان نفسها، فكرة مفادها أن اهتمام اليابانيين بالدراسات الاسلامية والشرق ـ أوسطية لم يبدأ إلاّ بعد ازمة النفط عام ١٩٧٣. بيد أن هذا الإدراك خاطىء كما تبرهن بوضوح «ببليوغرافيا الدراسات الاسلامية والشرق أوسطية في اليابان، ١٨٦٨ - ١٩٨٨» والتي صدرت مؤخراً عن مركز اليونسكو للدراسات الثقافية لشرقي آسيا ـ تويو بنكو ١٩٩٢ - ١٩٩٣.

وفي الحقيقة نستطيع تقصّي أثر الاهتمام الياباني بشؤون الشرق الأوسط بدءاً من مطلع العصر الميجي (سبعينات القرن الماضي) والأبحاث المتعلقة بمشكلة حاسمة هي مراجعة الاتفاقيات الدبلوماسية غير المتكافئة بين اليابان والبلدان الغربية. وفي الثلاثينات من هذا القرن قامت بعض المؤسسات المتخصصة بالدراسات الاسلامية والشرق ـ أوسطية، مثل «معهد الدراسات الاسلامية»، بإجراء أبحاث نشرتها في دورياتها الخاصة.

ولكن ما من شك في أن الازمة البترولية لعام ١٩٧٣ والثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ قصّرتا كثيراً المسافة بين اليابان والشرق الأوسط، إذ اصبح واضحا خلال هذين الحدثين أن الاقتصاد الياباني بات مرتبطاً بالوضع السياسي في الشرق الأوسط، وعبّر عنه أولئك الذين أصيبوا بالذعر خلال الأزمة النفطية وهرعوا لشراء كميات كبيرة من ورق التواليت خوفاً من اختفائها من الاسواق.

هذه التجارب أدّت إلى تقدّم حثيث في حقل الدراسات الشرق أوسطية في اليابان. وتوجد الآن معاهد يابانية عدة ذات برامج بحثية حول الدراسات الشرق أوسطية، مثل «معهد الاقتصاديات النامية»، و«المعهد الياباني لاقتصاديات الشرق الأوسط»، و«معهد الشرق الأوسط في اليابان»، و«معهد الثقافة الشرقية» بجامعة طوكيو، و«معهد الدراسات الشرق أوسطية» التابع للجامعة الدولية، و«مركز ثقافة الشرق الأوسط في اليابان». وتصدر مجلات تتناول هذا الحقل

---

(١) نشر مضمون هذه الورقة للمرة الاولى باليابانية في مجلة Gekkan Hyakka، العدد ٣٦٨ لعام ١٩٩٣. وللمزيد حول تاريخ الدراسات الاسلامية والشرق اوسطية، والعلاقات بين اليابان والشرق الاوسط، يرجى الرجوع الى هاجيمي كوباياشي «المعرفة اليابانية حول الاسلام والعالم الاسلامي خلال الازمنة الاقطاعية قبل حقبة ميجي»، ١٩٧٥؛ والى سانئيكي ناكاوكا، «التصور الياباني عن العالم العربي في اليابان»، في كتاب «مناقشة حول مصر الحديثة»، طوكيو ١٩٧٩؛ والى فوجيو كومورا، «تاريخ الاسلام في اليابان: نشاطات المسلمين اليابانيين في فترة ما قبل الحرب»، طوكيو ١٩٨٨ (وجميعها باليابانية). وكذلك تسوجيتاكا ساتو، «الموقف الحاضر في الدراسات الاسلامية والشرق اوسطية في اليابان»، في حوليات الاتحاد الياباني لدراسات الشرق الاوسط، العدد ٧ لعام ١٩٩٢ (بالانكليزية).

بالذات عن روابط مثل «جمعية دراسات الشرق الأدنى في اليابان» و«رابطة الدراسات الاسلامية في اليابان» و«الرابطة اليابانية لدراسات الشرق الأوسط».

وبينما كانت الدراسات البحثية المنفّذة في اليابان تميل في السابق إلى اقتفاء أثر الدراسات التي يقوم بها باحثون غربيون، فإن من الطبيعي والمألوف الآن أن تُستخدم المصادر الأساسية المكتوبة باللغات الشرق أوسطية (العربية والتركية والفارسية) وأن يجري السفر إلى بلدان في الشرق الأوسط للقيام بعمل وبحث ميدانيَين. وأما الغرض من هذا البحث فإنه لا يقتصر على فهم الاسلام والشرق الأوسط في سياقهما الأصلي، بل يتعداه إلى محاولة إعادة تمحيص أفكار التاريخ والحضارة التي خضعت لتأثّر بالغ بالحضارة الغربية. أحد الأمثلة على ذلك هو المشروع العلمي المسمّى «التمدّن في الاسلام: دراسة مقارنة» الذي يرأسه البروفيسور يوزو إيتاغاكي وتموّله وزارة التربية والعلوم والثقافة اليابانية، ويجري تنفيذه منذ ثلاث سنوات في معهد الثقافة الشرقية بجامعة طوكيو. هذا المشروع برهن على أن الثقافة الاسلامية ليست ثقافة البدو في الصحراء، ولكنها تتسم بعمرانها المدني ما دامت قد تطورت بدءاً من المدن في غابر الأزمان، وشكّلت بذلك عدداً من الثقافات المختلفة. وبالمقارنة مع الثقافة الأوروبية ومُدُنها في القرون الوسطى، والتي أقصت الفلاحين والغرباء ولم تمنح الجنسية لأحد سوى أبناء البلد الأصليين المقيمين، فإن المدن الاسلامية أدركت مستوى رفيعاً من المرونة أتاح لها حلّ المشكلات المماثلة.

والباحثون اليابانيون أنتجوا العمل الأكاديمي للمختصين، والدوريات للقارىء العام. و«قاموس الاسلام» (١٩٩٢) الذي حرّرته رابطة الدراسات الاسلامية، و«دليل الشرق الأوسط» (١٩٧٨) باشراف يوزو إيتازاكي، كتابان تمتّعا بشعبية واسعة كعملين لا غنى عنهما في هذا الميدان. يضاف إلى ذلك بدء إصدار السلسلة التي تغطّي الموضوع ذاته، مثل «الاسلام» (أربعة أجزاء، ١٩٨٣- ١٩٨٦)، و«سكّان العالم الاسلامي» (خمسة أجزاء، ١٩٨٤)، وشهد عام ١٩٩٤ بدء نشر سلسلة أخرى بعنوان «عالم الاسلام» (ستة أجزاء). وفي المنشورات الأخيرة يلاحَظ اتجاه الباحثين إلى الانخراط في قراءة النصوص الأصلية وتقديم صورتهم الخاصة عن المجتمع الاسلامي من خلال تحليل أصيل. وبعض الأمثلة على ذلك كتاب تسوغيتاكا ساتو «المماليك: حكّام من عالم غير اسلامي» (١٩٩١) والذي يبيّن مرونة المجتمع الاسلامي في الاعتراف بالمماليك كحكّام، وهم الذين كانوا في الأصل غرباء كَفَرة. وكتاب أكيرا غوتو «مكّة والمجتمع الاسلامي المدني» (١٩٩١) يصف المجتمع المكّي في طور صعود الاسلام، ويعتبره «مدينة حرّة» لا يوجد فيها نظام للأشراف الرؤساء، أو المجالس والمؤسسات الحكومية. ومفهومه عن «المدينة الحرّة» ينتقد ويقف على النقيض من تأويل م. م. واط وسواه ممن اعتبروا مكّة مجتمعاً قَبَلياً. كتاب هيكويشي ياجيما «تشكيل العالم الاسلامي والتجارة الدولية» (١٩٩١) يقدّم منظوراً جديداً للتاريخ الاسلامي بمصطلح شبكات التجارة الدولية حول العالم الاسلامي. وكتاب تاداشي سوزوكي «الامبراطورية العثمانية: المرونة الاسلامية في الأوتوقراطية العثمانية» يبحث عن السبب وراء أمجاد الإمبراطورية العثمانية، ويحاجج بأنها أعطت الاستقلال الذاتي لكل جالية دينية أو إثنية من جهة أولى، وكان نظامها القانوني المُنَفّذ بصرامة يضمّهم جميعاً داخل الامبراطورية من جهة ثانية. جميع هذه الأبحاث تميل إلى التشديد على مرونة وليونة المجتمع الاسلامي بمصطلح الجنود - العبيد، والمدن، والتجارة، والأنظمة الادارية. ولقد نشر يوزو إيتاغاكي كتابين ناجمين عن أبحاثه الخاصة: «الإصغاء إلى صوت الحجارة» (١٩٩٢) و«حيث يلتقي التاريخ ودراسات المنطقة: الشرق الأوسط اليوم» (١٩٩٢)، وفيهما عالج مشكلات الشرق الأوسط المعاصرة. وهو، على سبيل المثال، يبحث في القضية الفلسطينية لا بوصفها مشكلة محصورة بالعرب والمسلمين فحسب، بل كمشكلة تخص العالم المعاصر بأسره، حيث تتداخل مشكلات عديدة. وكتاب «دراسات التمدّن الاسلامي: مراجعة ومنظورات تاريخية» طُبع كواحد من أبرز نتاجات المشروع البحثي السالف

الذكر حول التمدّن في الاسلام، وأشرف عليه خمسة باحثين يابانيين (ماساشي هانيدي، تورو ميورا، ماساتوشي كيسايشي، كايوكو هاياشي، وهيساو كوماتسو) وصدر عام ١٩٩١ باليابانية، وعام ١٩٩٤ بالانكليزية.

وهنالك ترجمات عديدة لكلاسيكيات الشرق الأوسط. فالقرآن الكريم تُرجم عن الأصل العربي ثلاث مرّات: على يد توشيهيكو إيزوتسو في عامَيْ ١٩٥٧ - ١٩٥٨، ثم كاتسوجي فوجيموتو وآخرين في عام ١٩٧٠، وأخيراً الرابطة اليابانية المسلمة عام ١٩٧٢. واستكمل شينجي مايجيما وأوسامو إيكيدا ترجمة «ألف ليلة وليلة» عام ١٩٩٢، وهي أول ترجمة تامة عن طبعة كالكوتا في العالم، واستغرقت أكثر من اثنتين وعشرين سنة، واحتاجت إلى ثمانية عشر مجلداً. أعمال أخرى تتوفّر اليوم باليابانية، بينها «رحلات ابن جبير» (١٩٩١)، و«الشاهنامة» للفردوسي (١٩٦٩)، و«خسرو وشيرين» للنظامي (١٩٧٧)، وأعمال فكرية مثل «مقاصد الفلاسفة» للغزالي (١٩٨٥)، و«فيه ما فيه» لجلال الدين الرومي (١٩٧٨).

ونعلم الآن من خلال هذا العمل البحثي أن الشرق الأوسط الاسلامي لا يمكن فهمه فعلياً باستخدام نوع من الجوهرانية Essentialism المبسّطة التي تردّ أسباب المشكلات السياسية المعاصرة إلى مناخ الشرق الأوسط القاحل أو أي عامل أحادي من هذا القبيل. ويجب بالأحرى النظر إلى الشرق الأوسط الاسلامي كمجتمع تعددي ذي تنوّع ومرونة بالغَيْن فيما يتصل بالطبيعة والتاريخ والثقافة. وخلال أزمة الخليج، على سبيل المثال، نشر كاتب ياباني معروف مقالة فحواها أن ذهنية وسلوك العراق، التي يصعب للغاية أن يفهمها اليابانيون، يمكن أن تُعزى إلى الشخصية الوطنية لأهل الصحراء الذين اتسموا دائماً بالعدوانية والميل إلى الحرب في بحثهم عن الماء. ولكن يتوجب أن ندرك، أيضاً، وجود ميل قوي لدى الرأي العام لرؤية الشرق الأوسط والاسلام في حالة من التعقيد وصعوبة الفهم، بحيث بات الناس مستعدين لاختزال جميع الظواهر المعنية وردّها إلى مثل تلك الأسباب التبسيطية. بيد أن الأمر قد يعود أيضاً إلى أننا لم نراكم معلومات كافية بسبب حقيقة أن تاريخ الشرق الأوسط لم يدُرّس إلا كموضوع ملحق بتاريخ الشرق والغرب في المدارس اليابانية منذ العهد الميجي.

وأولى محاولات الفهم الدقيق لما بات اليابانيون يعرفونه عن الشرق الأوسط الاسلامي هو«ببيليوغرافيا الدراسات الاسلامية والشرق أوسطية في اليابان، ١٨٦٨ - ١٩٨٨» والتي طبعها في عامَيْ ١٩٩٢ - ١٩٩٣ مركز اليونسكو للدراسات الثقافية لشرقي آسيا - تويو بنكو. وهذه هي أول لائحة مفصلة (كاتالوغ) حول الحقل في اليابان، وتحتوي على أكثر من خمسة عشر ألف عنوان يخصّ الشرق الأوسط بعد صعود الاسلام، طُبعت بين الحقبة الميجية المبكّرة (١٨٦٨) ونهاية حقبة الـ «شوّا» (١٩٨٨) [٢]. و«البيبليوغرافيا» لا تسجّل لوائح الكتب والمقالات والترجمات فحسب، بل أيضاً مراجعات الكتب ووقائع المؤتمرات والندوات في حقول العلوم الطبيعية، والعلوم الاجتماعية والانسانيات. ولقد صُمّمت لكي تكون كتاباً مرجعياً لخدمة الصحافيين ورجال الأعمال المعنيين بالاسلام والشرق الأوسط، فضلاً عن تزويد الطلاب والباحثين في الحقل بما انتهى إليه إرثهم الأكاديمي. يضاف إلى ذلك أن «البيبليوغرافيا» تسجّل لوائح أسماء جميع المؤلفين والعناوين باليابانية وبلغات أجنبية (الإنكليزية، الفرنسية، الألمانية، العربية، الفارسية، التركية، وسواها) بحيث يمكن استخدام العمل من قبل الجماعات البحثية الدولية للحصول على فكرة عامة عن طبيعة اهتمامات زملائهم اليابانيين. والمجلّد المخصص للفهرس يتضمن فهرسة لأسماء المؤلفين وأسماء المجموعات حسب الترتيب الأبجدي. [٣]

---

(٢) هنالك مرجعان هما «ببيليوغرافيا الدراسات الإسلامية» من تحرير هيروشي واتانابي وصدرت عام ١٩٦١، و«ببيليوغرافيا الدراسات العربية في اليابان، ١٨٧٥ - ١٩٧٩» وصدرت عام ١٩٨١. وكانا متوفّرَين ولكنهما لا يغطيان سوى حقول محدودة كما يتضح من العنوانين.

(٣) حول توزيع هذه البيبليوغرافيا، يرجى الكتابة إلى العنوان المبيّن في النص الإنكليزي من هذه المقالة.

حقول الاهتمام واتجاهات النشر

اتخذ مركز اليونسكو للدراسات الثقافية لشرقي آسيا القرار بتجميع وتحرير «البيبليوغرافيا» بعد الإصدار الناجح لـ «بيبليوغرافيا دراسات آسيا الوسطى في اليابان ١٨٧٩ - ١٩٨٧»، وذلك خلال عامَيْ ١٩٨٨ - ١٩٨٩. ولقد استغرقت أعمال التجميع أربع سنوات، وبدأت بإنشاء أساس للمعطيات الكومبيوترية قدره ١٣٠٠٠ مادة استُخرجت من بيبليوغرافيات سابقة متوفرة. ثم جاءت مهمّة تدقيق المواد على المنشورات الأصلية المحفوظة في المكتبة الوطنية وسواها من المكتبات التي تحفظ مجموعات اسلامية وشرق أوسطية. ولم يقتصر الغرض على التحقق من دقّة المعلومات الواردة في المعطيات الأساسية (مثل أسماء المؤلفين، والعناوين، ومعطيات النشر)، بل تعدّاه إلى اكتشاف عناوين هامة قد تكون وُضعت جانباً. ونتيجة هذا الاجراء تمّ تصنيف أكثر من ٢٠٠٠٠ مادة تتصل بأبحاث الاسلام والشرق الأوسط، ودُوّنت هذه في كشوف وأُدخلت إلى الكومبيوتر.

وأخيراً، وبعد استعراض المعايير الناجزة لاختيار العناوين، احتوت المعطيات الأساسية على ١٥٠٠٠ عنوان، معظمها يدخل في باب البحث، وتمّ استثناء التقارير الإخبارية كقاعدة عامة. ولكن مجلات الرحلات ومقالات الرحّالة اليابانيين، فضلاً عن المراسلات الأجنبية السابقة على الحرب العالمية الثانية، أُدرجت في بند خاص باسم «اليابان والشرق الأوسط»، وذلك لتزويد القراء بمعلومات متصلة بالعلاقات السياسية والثقافية بين اليابان والشرق الأوسط. وجميع المواد مرتبة أبجدياً وحسب النظام الصوتي للأحرف اليابانية، وهي مرتبة أيضاً حسب مستويات البحث في أربع عشرة مقولة أساسية وثلاث وخمسين مقولة فرعية. وعدد المؤلفين (بما في ذلك المحرّرين والمترجمين) يبلغ ٤١٠٠ ياباني، و١٥٠٠ من غير اليابانيين، و٤٣٠ منظمة. وعدد الدوريات المصنفة بلغ حوالي ٩٠٠.

وأما بالنسبة إلى حقول البحث التي اهتمّ بها اليابانيون، فإن التاريخ يأتي في المرتبة الأولى (١٩٪)، تليه السياسة والعلاقات الدولية (١٦٪)، فالاقتصاد والصناعة ما بعد الحرب (١٢٪). وهذه المعطيات تكشف أن دراسة التاريخ في علاقة وثيقة مع الدين والثقافة الاسلاميَين استأثرت تاريخياً بدور هام في فهم الاسلام والشرق الأوسط، رغم أن الاهتمام بالسياسة والاقتصاد يتزايد باضطراد على مرّ الأيام.

والجدول الثاني يحلل المعطيات الأساسية وفقاً لفترة النشر. ومن المدهش أن البحث قبل الحرب العالمية الثانية يشغل حوالي ٢٠٪ من جميع الأعمال المدوّنة في كشوف، نافياً بذلك الافتراض العام القائل إن اهتمام اليابان بالشرق الأوسط قبل السبعينات كان طفيفاً. وفي فترة ما قبل الحرب ازداد البحث المنشور باضطراد حتى بلغ ذروته في الثلاثينات. وبعد الحرب انحسر النشر فجأة، وحتى الستينات.[٤] و«البيبليوغرافيا» لن تكتفي بتزويد الباحث بهذه المعطيات الكمية حول حقول محددة اهتم بها اليابانيون على مرّ السنين، ولكنها أيضاً ستكون قادرة على كشف الكيفية التي بموجبها تمرّست مختلف تيارات البحث اليابانية على مدار تاريخها. وفي الأقسام التالية سوف أتناول المدّ والجزر في فترة ما قبل الحرب، والتي لا يُعرف عنها الكثير. وباختصار، نلاحظ في معطيات «البيبليوغرافيا» ثلاثة اتجاهات في أبحاث ما قبل الحرب. أولها وقع في بداية الحقبة الميجية حين حاولت الحكومة اليابانية تحديد الاتفاقات الدبلوماسية الموقعة مع البلدان الغربية في نهاية حقبة الـ «إيدو» السابقة. والاتجاه الثاني ظهر خلال الحرب الروسية - اليابانية (١٩٠٤ - ١٩٠٥) حين شرعت اليابان في استعمار كوريا ومنشوريا. والاتجاه الثالث بات واضحاً خلال الفترة التي أعقبت حدث منشوريا حين احتلت اليابان هذا البلد وخططت لغزو الصين.

(٤) يجب على القارىء أن يضع في ذهنه المعايير المختلفة بعض الشيء لاختيار المواد المتوفرة قبل الحرب وبعد الحرب، والتي تفضي إلى فروقات كيفية بين المرحلتين.

الاهتمام بمصر وإبطال التنازلات الدبلوماسية

في بداية الحقبة الميجية واجهت الحكومة اليابانية، المشكّلة حديثاً، مهمة التفاوض حول اتفاقات دبلوماسية مجحفة مع بلدان أوروبا والولايات المتحدة في محاولة لإبطال بعض التنازلات التجارية والإقليمية، والتي وقّعتها حكومة شوغونات عام ١٨٥٨. وتمهيداً لذلك أخذت الحكومة تتفحص النظام القضائي المصري المختلط، ما دامت بريطانيا قد انتوت إدخال نظام القُضاة الأجانب إلى اليابان كما فعلت للمرة الأولى في مصر عام ١٨٧٥. وكتب رينشو ميتسوكوري «شريعة القانون في مصر» عام ١٨٧٨، وكتب تاكاشي هارا «المحكمة المختلطة في

© Photothèque IMA.

مصر» عام ١٨٨٩. وفي عام ١٨٨٦ أُرسل تاكاشي هاسيغاوا إلى مصر للتحقّق من الموقف، واقترح في تقريره الذي قدّمه بعد عام أن المحكمة المختلطة قد تلحق الأذى بالسيادة الوطنية للدولة.

وكانت مصر قد نجحت، عام ١٨٨١، في إقامة حكومة وطنية ودستور وبرلمان بقيادة أحمد عرابي، ولكنها بعد غزو الجيش البريطاني وقعت تحت الاحتلال. وفي مطلع عام ١٨٨٤ بادرت الإدارة العسكرية للقوات البحرية اليابانية إلى ترجمة كتاب نيفيل لويد ولفورد «الهجوم المدفعي البريطاني على الاسكندرية عام ١٨٨٢» والذي وصف الغزو. كذلك طبع مكتب الأركان العامة تقارير الاحتلال الفرنسي لتونس عام ١٨٨١ تحت عنوان «غزو تونس» الذي صدر عام ١٨٨٣، و«سجلات حملة تونس» عام ١٨٨٧. هذه المطبوعات تشير ألى الاهتمام الجدي الذي أبدته الحكومة اليابانية بالاحتلالات العسكرية التي كانت القوى الغربية تقوم بها آنذاك. وكانت الخشية أن يكون اليابان في الموقع ذاته مثل تلك البلدان الشرق أوسطية، وأن يواجه خطر الغزو العسكري واحتلال القوى الغربية لأراضيه. هذا هو الفهم السائد في «حوار مع عرابي باشا»، وهو تقرير كتبه ضابط الجمارك ساجي نومورا الذي زار عرابي باشا عام ١٨٨٧ حين كان الأخير منفيّاً في جزيرة سيلان. وكان نومورا قد عاد إلى الاسكندرية بعد جولة تفقدية في أوروبا، وزار المنشآت الجمركية فأدهشته حقيقة أن البريطانيين احتلوا جميع المناصب الرفيعة، وأن العوائد الجمركية كانت ترسل إلى «لجنة الديون الخارجية» كدفعات فوائد على الدين المصري. وفي ذلك الوقت سأل نومورا أحد المصريين: «ألا يوجد من يقودكم»؟ فتلقى الجواب التالي: «هنالك من يقودنا، ولكنه الآن في كولومبا في جزيرة سيلان، يقضي حياته الفارغة في الصيد والحسرة على فشله». وحين أرست سفينته قلوعها في كولومبو بمحض الصدفة في طريق عودته إلى اليابان، هرع نومورا لرؤية عرابي باشا، فنصحه هذا أن يلتمس الحذر في التعامل مع البلدان الأوروبية.

كذلك نلمس إحساس التعاطف الياباني مع الشعوب المضطهَدة في آسيا وأفريقيا، وذلك في رواية توكاي سانشي «مغامرة الجمال» (١٨٥٦ - ١٨٩٧)، والتي أصبحت الأكثر مبيعاً في ذلك الزمان بسبب إطرائها للشعور القومي لدى شعوب العالم المضطهَدة . كذلك يسود الشعور ذاته في عمله الثاني «تاريخ مصر الحديث» (١٨٨٩).

ولقد أقيمت العلاقات الدبلوماسية حين أُرسلت بعثة يابانية إلى إيران، وكان في عدادها ماساهارو يوشيدا من وزارة الخارجية، ويوشينوبو فوروكاوا من رئاسة الأركان العامة. وكتاب يوشيدا «استكشاف العالم المسلم: رحلات في بلاد فارس» (١٨٩٤)، وكتاب فوروكاوا «دليل الرحلة إلى بلاد فارس» (١٨٩١) يسجّلان وقائع الرحلة. وفي عام ١٨٩٠ أرسل السلطان عبد الحميد الثاني السفينة الحربية

«أرطغرل» وعلى متنها بعثته إلى اليابان، لكنها غرقت في قناة ساحل واكاياما. وقد نجح الصيادون في إنقاذ بعض أفراد البعثة، وأعيدوا إلى تركيا بعد سنتين على متن السفينة الحربية اليابانية «كونغو». وهذا الحادث رسخ طويلاً في ذكريات الشعبين التركي والياباني كعربون على الصداقة اليابانية ـ التركية.

اليابان ترى في مصر نموذجاً للحكم الاستعماري: بعد الحربين الصينية ـ اليابانية والروسية اليابانية

اهتمام اليابانيين بالشرق الأوسط كإمم مضطهَدة شهد تغيّراً بعد الانتصار في الحرب الروسية ـ اليابانية في عامي ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥. وكانت اليابان قد نجحت لتوّها في إعادة التفاوض حول الاتفاقات المجحفة في عام ١٨٩٩، وأخذت تحرز تقدماً اقتصادياً وسياسياً في تايوان وكوريا ومنشوريا. والانتصار في الحرب الروسية ـ اليابانية أثّر بطريقتين على العلاقات بين اليابان والشرق الأوسط. فمن جهة أولى توفّر كتّاب مصريون وأتراك أطروا ظفر اليابان بوصفه انتصاراً للشعوب الشرقية المضطهَدة ضد الغرب، وأفضل مثال هو قصيدة مصطفى كامل الشهيرة «الشمس المشرقة» (١٩٠٤). ومن جهة ثانية تحوّلت اليابان نفسها إلى دولة مستعمِرة حين ألحقت كوريا في عام ١٩١٠. وأخذت صورة اليابان تنقلب من أمّة شرقية تقاوم القوى الغربية وتتعاطف مع الشرق الأوسط، إلى قوّة إمبريالية في الشرق تنوي إخضاع البلدان المجاورة لها سياسياً واقتصادياً.

وكان من الطبيعي، بالتالي، أن يتغيّر اهتمام اليابان بالشرق الأوسط تبعاً لتغيّر موقعها الدولي. وبهذا دُرس الحكم الاستعماري البريطاني في مصر لكي يكون نموذجاً للحكم الياباني الاستعماري في كوريا، كما في كتاب فوسازو كاتو «مصر كنموذج للسياسة الاستعمارية» (١٩٠٥) وكتاب ماساجي إينوي «الحكم البريطاني في مصر» (١٩٠٦). وامتدحت هذه الأبحاث اللورد كرومر، القنصل البريطاني العام في مصر أيام الاحتلال، وأشادت بقدرته على تجاوز الأزمة المالية في المنطقة. هذا الموقف عكس أيضاً الصداقة التي نشأت بين اليابان وبريطانيا بعد عقد الحلف الأنغلو ـ ياباني عام ١٩٠٢. والحق أن كتاب كرومر «مصر الحديثة» تُرجم إلى اليابانية في عام ١٩١١ في أعقاب الطبعة اليابانية من كتاب فرانز و. جيروزاليم «موجز الشرعة الاستعمارية الفرنسية» الصادر عام ١٩١٠، وكلا الكتابين يظهران اهتمام اليابان الشديد بمبادىء الحكم الاستعماري كما أرستها القوى الغربية. وفي مقدمته لكتاب كرومر كان شيجينوبو أوكوما، رئيس وزراء اليابان السابق، قد أعرب عن رأيه بوجوب تنفيذ استعمار كوريا والعثور على درب للتنافس مع القوى الغربية، تماماً كما نجحت بريطانيا في استعمارمصر.

والروائي الياباني الشهير توكوتومي روكا رصد هذا الإنقلاب الياباني نحو الإمبريالية خلال إقامته في الشرق الأوسط. وكان قد خطط للقيام برحلة حول العالم بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، وغادر اليابان مع زوجته في كانون الثاني (يناير) ١٩١٩ لزيارة القدس. ومذكراته عن الرحلة، بعنوان «من اليابان إلى اليابان»، طُبعت عام ١٩٢١ وأصبحت الكتاب الأكثر رواجاً، وباعت ٣٠٠٠٠ نسخة في سنة واحدة. وكان قد سبق له السفر إلى القدس، وكتب «دفتر مذكرات الحج» في عام ١٩٠٦.

وقد خطط لرحلة ١٩١٩ بعد أن مرّ، كما يبدو، بتجربة رؤية الله والإحساس بأنه وزوجته قد ولدا من جديد في صورة آدم وحواء. ولقد مكثا في مصر أولاً، في انتظار تأشيرة الدخول إلى فلسطين. وهناك شاهد المصريين يتظاهرون في الشوارع، مطالبين بالاستقلال عن بريطانيا. وأقام توكوتومي في فندق قرب الأزبكية، حيث يقيم العديد من جنرالات بريطانيا، وذلك رغم أن إقامته السابقة كانت في فندق رخيص. ولقد تأثّر كثيراً بالتظاهرة التي ضمّت أكثر من ٢٠٠٠٠ مواطن مصري، خصوصاً الرجل العجوز الذي ركع للصلاة من أجل الاستقلال، حتى أنه أجهش بالبكاء وخاطب نفسه قائلاً: «بوسع مصر هذه أن تعتمد على نفسها»! وهو لم يرو هذه الحادثة على سبيل الجيشان العاطفي، بل استناداً إلى معرفته بالتاريخ

المصري الحديث. والحق أنه كتب يقول: «إن مصر تناضل منذ زمن طويل لتحرير نفسها من براثن الأسد (بريطانيا). ولقد مرّت أربعون سنة على نفي عرابي باشا إلى سيلان».

وإذ راقب الموقف السياسي الراهن في اليابان، لاحظ ما يلي:

« نحن، حكّام كوريا، رأينا هذه المظاهرة تمرّ أمام الفندق مباشرة. وينبغي علينا أن نتذكّر أن كوريا هي اليوم في موقع شبيه بموقع مصر، وأن اليابان في موقع شبيه بموقع بريطانيا. ونحن بحاجة للتبصّر في الموقفين معاً».

وأدرك توكوتومي أن موقع اليابان قد تحوّل من صف البلدان المضطهَدة في الشرق إلى صف القوى الإمبريالية الغربية. ثم تحوّل توكوتومي نفسه بالطريقة ذاتها من موقفه المناهض للنزعة العسكرية إلى الموقف المؤيد للحرب في الحرب الروسية ـ اليابانية. وكانت اليابان آنذاك قد شقّت بعض المسالك إلى أسواق الشرق الأوسط، كما يتضح من زيارة قام بها توكوتومي إلى معمل لصناعة الأواني والصياني النحاسية في دمشق. وهناك علم أن النحاس الخام المستخدم في تلك الصناعة كان يستورد من اليابان.

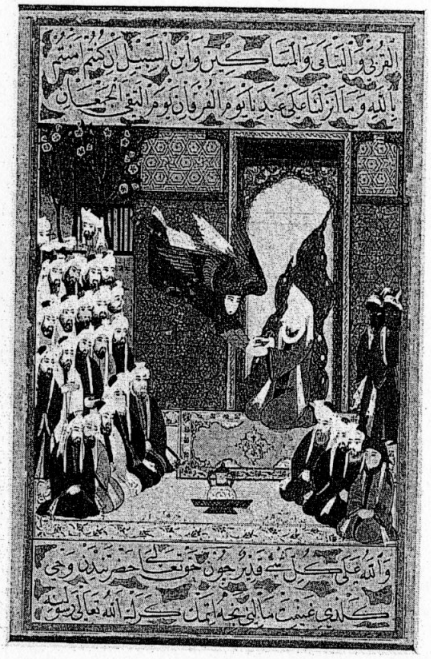

© R.M.N. ; Miniature - Page du Siyari Nabi, époque ottomane.

الاسلام وثقافته

منذ أيام الحرب الروسية ـ اليابانية أظهرت اليابان الكثير من الاهتمام بالدين والثقافة في الشرق الأوسط الاسلامي. وطبع كينئيشي ساكاموتو «سيرة محمّد» في عام ١٩٢٣، بعد ترجمة القرآن في عام ١٩٢٠. كذلك صدرت أعمال أخرى عن محمّد، مثل كتاب نوكاريا كايتين «محمّد الغالب» (١٩٠٥)، وكتاب كيتسو كوشيمورا «محمّد: النبي المقدس» (١٩٢٣). أما كتاب كاما ساغاوا «الاسلام» فقد كان أوّل محاولة لشرح عقيدة الاسلام بصورة إجمالية. وهنا ينبغي أن نلاحظ موقف ساكاموتو الذي سرده على النحو التالي:

« انتشر الاسلام حتى بلغ الجزء الشرقي الأقصى من آسيا، ولكنه لم يبلغ اليابان. وبذلك فإن معرفة اليابان بالاسلام لم تأت من جزيرة العرب مباشرة، بل ارتكزت على الدراسات الأوروبية. بيد أن الأوروبيين لم يفهموا النبي محمّد ولا الاسلام على نحو صحيح. لقد تشوّهت دراستهم بفعل مصادر مثل «أغنية رولان» وكتابات البروتستانت، حيث يوصف محمّد بـ «الشيطان». ولا بدّ لأي نقد لمحمّد من أن يمرّ بالاسلام، إذا شاء المرء القيام بذلك».

وكان ساكاموتو قد اكتشف لتوّه الفهم الاستشراقي المشوّه للاسلام، وألحّ على القراءة النقدية للبحث الأوروبي في ذلك الزمن.

والشروحات الأولى للثقافة والدين نشرها كوتارو ياماكوتا، أول ياباني يحجّ إلى مكة عام ١٩١٢، وذلك في كتابه «لغز العالم: رحلات في جزيرة العرب». وفي عام ١٩٢٤ نشر إيبي تاناكا في المجلة المشهورة «اليابان واليابانيون» عرضاً للحج في سياق وصفه لرحلاته.

أما بالنسبة إلى الأدب، فقد ترجمت «ألف ليلة وليلة» إلى اليابانية بطريقتين: عن ترجمة إي. لين (وقام بها أكينوسوكو هيناتسو، الباحث في الأدب الإنكليزي، في عامي ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧)، وعن ترجمة ر. برتون (وقام بها سويشي أويا في عامي ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠). وقام شيجيرو أركاي وسوفو تاكيتومو بترجمة «رباعيات الخيام» في أعوام ١٩٢٠ ـ ١٩٢٢. كذلك كتب أوكاي، الذي كان جامعاً

شهيراً للأدبين العربي والفارسي، مؤلّفه «الأدب الفارسي» في عام ١٩٢٢.
ونشر تادازومي إيدا وسيتارو إوكاجيما مقالات حول فكر ابن خلدون في عامي ١٩٢١ و١٩٣٠ على التوالي. والمحاولتان تبيّنان تقدّم فلسفة التاريخ عند ابن خلدون، إذا ما قورنت بالغرب. وقام شوتارو إيتو برحلات عديدة إلى تركيا وسورية، ونشر عام ١٩٠٩ مقالة بعنوان «حول أصل الفنون العربية». هذا العمل في مجموعه يبرهن على اتجاه سائد لدى الباحثين اليابانيين لفهم العالم الاسلامي بوصفه يمتلك ثقافته الخاصة المختلفة عن الثقافة الغربية والشرقية على حدّ سواء. وكان هذا هو الاتجاه الذي بدأ بالفضول والإنبهار بالغريب في الحقبة الإيجية، ثم تطوّر إلى اكتشاف وفهم حقيقيين.

زيارة المسلمين إلى اليابان

في شباط (فبراير) عام ١٩٠٩ وصل إلى اليابان عبد الرشيد إبراهيم، وهو مواطن من بلاد التتار الواقعة تحت الحكم الروسي، ليقابل كبار الساسة من أمثال هيروفومي إيتو (نائب رئيس الوزراء في بداية الحقبة الإيجية)، وشيجينوبو أوكوما، وتسويوشي إينوكاي (رئيس الوزراء في حقبة شوّا)، وبعض الشخصيات الاجتماعية. وكان هدف زيارته هو تأمين الدعم من شعب آسيوي صديق للنضال من أجل الاستقلال عن الغرب، وخصوصاً روسيا. ومذكرات عبد الرشيد إبراهيم، التي حملت اسم «العالم الاسلامي ودعاوة الاسلام»، تُرجمت إلى اليابانية عام ١٩١٩ على يد كاوري كوماتسو وهيساو كوماتسو.

وبوسعنا أن نقرأ فيها الآمال الكبيرة المعلّقة على اليابان التي هزمت روسيا الإمبريالية، عدوة التتار، وعلى الشعب الياباني الذي يصفه بالشريف والمهذب. وفي عام ١٩١٨ وجد مسلمو البشكير والتتار ملجأ في اليابان بعد أن حاربوا الجيش الأحمر بقيادة قربان علي، فأقاموا لأنفسهم مركز دعاوة اسلامية في اليابان، وأنشأوا عام ١٩٢٧ المدرسة الاسلامية في طوكيو.
وبعد الحرب العالمية الأولى شرعت اليابان تتاجر مع بلدان شرق أوسطية مثل مصر وتركيا. ويمكن العثور على تقارير حول الأسعار، واتجاهات الأسواق، ومعدلات الجمارك وما إليها، منشورة في مجلات مثل «التجارة» و«الصناعة» و«دراسات حول التجارة مع الشرق» و«التقرير الاقتصادي الشهري»، كتبها مراسلون يابانيون مقيمون في الشرق الأوسط. وأقيمت مكاتب تجارية يابانية في اسطنبول عام ١٩٢٨، وفي القاهرة عام ١٩٢٩، فقدّمت لليابان معلومات أكثر دقّة وتفصيلاً. ومعظم الصادرات إلى المنطقة تألفت من بضائع النسيج، ولكن الشركات اليابانية تاجرت أيضاً بالأغذية المعلبة، والشاي الأخضر، وأبسطة الصلاة المصنوعة من القش استجابة للطلب في الشرق الأوسط. وتقدّم اليابان في أسواق الشرق الأوسط تسبب في منافسات مع بلدان أخرى، خصوصاً في مصر، حيث أُجبرت اليابان على الانسحاب من السوق تحت ضغط المعارضة البريطانية الشديدة. وكانت المجلات المشار إليها أعلاه قد تناولت السياسة المصرية بصدد هذه المشكلة.

تأسيس معاهد الدراسات الاسلامية

قبل الحرب بلغت الدراسات الاسلامية في اليابان ذروتها في الثلاثينات والأربعينات، حيث طُبع ما يزيد على ١٦٠٠ عمل متعلق بهذا المضمار خلال نصف قرن وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية، أي بمعدّل ١١٢ إصداراً في السنة. هذه الزيادة السريعة في المنشورات كانت عائدة في جزء كبير منها إلى تأسيس العديد من المعاهد المكرّسة للدراسات الاسلامية. ولقد تأسس «معهد الدراسات الاسلامية» والرابطة الاسلامية في اليابان الكبرى» عام ١٩٣٨، أما «معهد أبحاث شرقي آسيا» و«مكتب الأبحاث الاقتصادية لشرقي آسيا» التابع لسكّة حديد منشوريا الجنوبية فقد أُنشئا عام ١٩٣٩. وهذه المعاهد تطبع مجلات مثل «العالم الاسلامي»، و«العالم المسلم»، و«مجلة معهد أبحاث شرقي آسيا»، و«آسيا الجديدة»، في حين أن العديد من كبار الخبراء في الحقل مثل كوجي أوكوبو، وهاجيمي

كاباياشي، وهيجاو ماتسودا، وتوموهيدي نايتو، وهيروشي إيواناغا، وشومي أوكاوا، ووشينجي ميجيما عُيّنوا كأعضاء باحثين. وإذا أدرجنا مجلة «أخبار الاسلام»، التي يصدرها مكتب الأبحاث والتوثيق في وزارة الشوون الخارجية، و«الاسلام» التي تصدرها «جمعية الثقافة الاسلامية»، فإن عدد المطبوعات يرتفع إلى ١٠٠ في عام ١٩٣٨، و١٦٠ في عام ١٩٣٩، و١٩٨ في عام ١٩٤٠، و٢١٧ في عام ١٩٤١ رغم الصعوبة الكبيرة في الحصول على مواد النشر في ظل اقتصاد الحرب. وفي هذه الفترة بالذات أقيمت المساجد للمرة الأولى في كوبي عام ١٩٣٥، وفي ناغويا عام ١٩٣٧، وأخيراً في طوكيو عام ١٩٣٨.

ومعظم محتويات هذه المجلات تألّف من ترجمات من القرآن وتعليقات عليها، وكُتُب تعليم اللغات الشرق أوسطية، والتقارير حول الشؤون السياسية. ولكن يمكن أيضاً العثور على العمل الأكاديمي، مثل المراجعات المتعلقة بالدراسات الأوروبية، ومنشورات رفيعة المستوى مثل «تاريخ البلدان الاسلامية» (١٩٣٤)، و«التاريخ الثقافي للأراضي الجافة في آسيا» (١٩٣٨). وكان تأسيس معاهد البحث قد ارتبط بسياسة الحكومة وبفكرة «الخطة الشاملة للإزدهار المشترك في آسيا الشرقية الكبرى»، والتي أُملَت في تعاون الشعوب الاسلامية القاطنة في منشوريا والصين وجنوبي شرق آسيا، وهي نقاط استراتيجية في الإمبراطورية اليابانية، فضلاً عن مسلمي الشرق الأوسط الذين كانوا يكافحون ضد بريطانيا. وكانت اليابان راغبة في أن تصبح إمبراطورية في الشرق تواجه القوى الغربية.

ورغم الصعوبات الكبرى التي انطوى عليها إنتاج البحث العلمي خلال زمن الحرب، فإن قدراً كبيراً من العمل الأكاديمي قد ظهر، بما في ذلك دراسات تادازومي إيدو حول الموسيقى العربية، والدراسات التاريخية مثل «دراسات حول المماليك» (١٩٣٩) و«دراسات حول الزنج» (١٩٣٩) من تأليف هاجيمي كوباياشي، وكتاب شينجي مايجيما «دراسة في الشراب» (١٩٣٩)، وأبحاث كاميتارو ياجي في التصوّف، وأعمال تاشيهيكو إيزوتسو «تاريخ الفكر العربي» (١٩٤١)، ورايشي غامو «تاريخ وثقافة إيران»(١٩٤١). وعمل إيدا ينطوي على منظور عريض في الثقافة رغم أنه يرتكز أساساً على البحث العلمي الأوروبي، في حين أن ياجي ومايجيمي وكاباياشي استخدموا في عملهم مصادر أولية محققة في أوروبا.

الاستشراق في اليابان

معظم المعاهد المشار إليها، مثل «معهد الدراسات الاسلامية» و«مكتب الأبحاث الاقتصادية لشرق آسيا» في مشروع سكة حديد منشوريا الجنوبية، و«معهد أبحاث شرقي آسيا»، أُغلقت بعد الحرب بسبب النشاطات الإمبريالية. وتوجّب على الباحثين أن يواصلوا دراساتهم دون أي منظمة ترعاهم. وتراجعت الدراسات الاسلامية والشرق أوسطية حتى اندلعت أزمة السويس وحرب التحرير الجزائرية عام ١٩٥٦، فأثارتا الاهتمام الواسع لدى الجمهور الياباني. وهذا التراجع الطويل لم ينجم عن غياب المعاهد التي نظّمت الدراسات الشرق أوسطية فحسب، بل نجم أيضاً عن فقدان الرؤية. ذلك لأن الشرق الأوسط أخذ يُدرس بمصطلح نضالات العالم الثالث للتحرر الوطني في آسيا وأفريقيا، وهو موقف مختلف عن الاهتمامات التي سادت قبل الحرب العالمية الثانية.

وهذه الورقة حاولت أن تبيّن أن مختلف الاعمال اليابانية قبل الحرب لم تنبع بالضرورة من اهتمامات أكاديمية صرفة، بل أيضاً من مشكلات معاصرة يشترك فيها الشرق الأوسط واليابان. بيد أن هذه المشكلات لم تنشأ عن موقف في الشرق الأوسط بحدّ ذاته، بل بالأحرى عن الموقف السياسي في اليابان، مثل التضامن مع البلدان المضطهَدة في الشرق، والذي تحوّل بسهولة ليتبنّى وجهات النظر التي يقول بها الاستعماريون الغربيون، فأسفر عن فكرة «الخطة الشاملة للإزدهار المشترك في آسيا الشرقية الكبرى». هذا هو السبب في أن البحث المنجز قبل الحرب العالمية الثانية لا يمكن الاتكاء عليه كثيراً

لبناء كتلة من المعرفة تالية لحقبة الحرب، لأن وجهة النظر ذاتها قد تغيّرت من موقف سياسي لشرق أمام الغرب إلى آخر ينطوي على غرب أمام الشرق، والعكس بالعكس. وبهذا المعنى، من المدهش أن هاجيمي كوباياشي وباحثون آخرون اقترحوا دراسة الشرق الأوسط كمنطقة ثقافية مختلفة عن الشرق والغرب في الأربعينات.

وكان إدوارد سعيد قد قال إن الأوروبيين قسّموا العالم إلى شرق وغرب، وكانت النتيجة هي فكرة شرق مختلف تماماً عن الغرب. وهذا الاستشراق لم ينتج صورة مشوهة عن الشرق فحسب، بل عكس أيضاً صورة ذاتية للغرب نفسه. ونظرية سعيد في الاستشراق يقرّ بها علماء باحثون في الغرب كما في الشرق. وعمل سعيد تُرجم إلى اليابانية على يد يوزو إيتاغاكي وهيدياكي سوجيتا ونوريكو إيمازاوا، وصدر عام ١٩٨٥. وإن الدراسات الاسلامية والشرق أوسطية في اليابان تعكس صورة ذاتية عن اليابان الحديثة التي تذبذبت في دعمها للشرق تارة وللغرب طوراً، وغيّرت ألوانها كالحرباء. ومن الهامّ للدراسات المستقبلية أن تصبح الصورة المنعكسة تصويراً للذات، سواء أكان التصوير سلبياً أم إيجابياً.

الجدول ١

حقول البحث والأعمال

الموضوع	عدد الكتب أو المقالات	النسبة المئوية
١ ـ الأعمال العامة	٦٠٩	٤ر٢
٢ ـ الدين والفكر	٩٨٨	٦ر٨
٣ ـ القانون	٣٨٧	٢ر٦
٤ ـ البيئة والجغرافيا	٦٨٨	٤ر٧
٥ ـ التاريخ	٢٦٩٦	١٨ر٥
٦ ـ السياسة والعلاقات الدولية (ما بعد الحرب العالمية الثانية	٢٣٩٠	١٦ر٤
٧ ـ الاقتصاد والصناعة	٦٦٨	١١ر٧
٨ ـ اللغة والأدب	١١٢١	٧ر٧
٩ ـ العلم والتكنولوجيا	١٧٩	١ر٢
١٠ ـ الفنون	٥٩٥	٤ر١
١١ ـ الفولكلور والاثنولوجيا	٢٩٥	٢ر٠
١٢ ـ المجتمع وعلم الاجتماع	٤٧٦	٣ر٣
١٣ ـ اليابان والشرق الأوسط	٢٢٦٧	١٥ر٥
١٤ ـ اتجاهات أكاديمية	٢٥١	١ر٧
المجموع:	١٤٦١٠	

الجدول ٢

الأعمال حسب التسلسل التاريخي

السنة	العدد الإجمالي	معدّل السنة
١٨٦٩ ـ ١٩٠٤	١٦٦	٤ر٦
١٩٠٥ ـ ١٩٣٠	٩٠٧	٣٤ر٩
١٩٣١ ـ ١٩٤٥	١٦٨٥	١١٢ر٣
قبل الحرب العالمية الثانية المجموع:	٢٧٥٨	
١٩٤٥ ـ ١٩٤٩	٦٧	١٣ر٤
١٩٥٠ ـ ١٩٥٩	٩٠٢	٩٠ر٢
١٩٦٠ ـ ١٩٦٩	٢١٧٤	٢١٧ر٤
١٩٧٠ ـ ١٩٧٩	٣٧٦٦	٣٧٦ر٦
١٩٨٠ ـ ١٩٨٨	٤٦١٧	٥٤٦ر٣